

١٠ - ابن الهيثم

أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم أصله من البصرة ، وانتقل منها الى الديار المصرية وأقام بها الى آخر عمره كما فعل ابن خلدون

وكان من نوابغ أهل عصره في العلوم الرياضية ، واشتغل بالفلسفة فلخص كثيراً من كتب ارسطو وشرحها

وكان كذلك طبيباً ولخص بعض كتب جالينوس ، وكان خبيراً بصناعة الطب علماً ولكنه لم يباشرها عملاً ولم يتدرب على فنون الداواة والجراحة

وروى علم الدين قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغنى بن مسافر الحنفي المهندس ان ابن الهيثم كان موظفًا بالبصرة وكانت وظيفته تعوقه عن النظر في الحكمة والاشتغال بالفلسفة ، فأراد أن يتجرد عن الشواغل التي تمنعه من النظر في الفلسفة فتظاهر بالجنون واستمر على ذلك مدة فصرفته الحكومة من المنصب الذي كان في يده

وكان ابن الهيثم من مواليد نصف المائة الرابعة فانه ولد في سنة ٣٥٤ هـ وتوفي في

سنة ٤٣٠ هـ

وبعد أن خرج من منصبه في البصرة سافر الى مصر ، وهي ما زالت ملجأ كل عالم وأديب من قديم الزمان الى وقتنا هذا ، فأقام بالقاهرة في الجامع الأزهر ، وكان يعيش من نسخ « اقليدس » و « المجسطي » وبيعهما وبقي كذلك الى آخر عمره

ولما كان في مصر بلغ الحاكم بأمر الله وهو سلطانها اذ ذاك خبر ابن الهيثم ، وكان الحاكم بأمر الله الفاطمي العلوي الذي وصفه بعض المؤرخين بالجنون وكفراه البعض الآخر وحرار الجميع في كيفية اختفائه قبل موته ، يميل الى الحكمة ، فلما سمع بان الهيثم وما هو عليه من الحدق والبراعة والاتقان في الفلسفة والرياضة والهندسة تأقت نفسه الى رؤيته

وبما زاد شوق الحاكم الى ابن الهيثم انه سمع نقلاً عن ذلك المهندس البصرى انه قال قبل أن يقدم الى الديار المصرية « لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى انه ينحدر من موضع عال هو في طرف الاقليم المصرى »

وهنا يعمل جمال الدين أبو الحسن بن القفطى في كتابه (تراجم الحكماء) ويؤيده ابن أبى أصيبعة سبب تظاهر ابن الهيثم بالجنون في البصرة وسعيه في التخلي عن وظيفته في وطنه ، وان ذلك لم يكن لأجل الانقطاع للفلسفة حسب ، لأن الحاكم بأمر الله لما نقلت اليه عبارة الهيثم الخاصة بمشروع هندسة الري في الأراضى المصرية ، ازداد شوقاً الى رؤية « ويلكوكس » ذاك الزمان وسير اليه سرّاً جملة من المال قبل أن تخلق المصارف ، ورغبه في الحضور

فسار ابن الهيثم الى مصر بعد أن مهد لرحلته السبيل بادعاء الجنون ، فلما بلغ مصر خرج الحاكم بأمر الله لقائه والتقىا بقرية على باب القاهرة اسمها الخندق وموضعها الآن الضاحية المعروفة باسم (كوبرى القبة) وأمر الحاكم بانزاله واكرامه واحترامه فأقام ابن الهيثم في تلك الضيافة الملكية ريثما استراح من وعناء السفر ثم طالبه الحاكم بانجاز ما وعده به من أمر النيل

ولم يكن ابن الهيثم يقصد سوى صنع خزان في موضع (خزان اسوان) قبل أن يفكر فيه المهندسون المصريون والفرزيون لاسيما الانجليز منهم بعشرة قرون . فسافر ابن الهيثم ومعه جماعة من أهل فن العمارة ليستعين بهم على هندسته التي خطرت له ولما سار الى الاقليم بطوله ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية وهى على غاية من احكام الصنعة وجودة الهندسة وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ومثل هندسية وتصوير معجز تحقق أن الذى كان يقصده ليس بممكن فان من تقدمه في العصور الخالية لم يعزب عن عقولهم علم ما علمه ولو أمكن لفلوه فانكسرت همته ووقف خاطره ووصل الى الموضع المعروف بالجنادل قبلى مدينة (اسوان) وهو موضع

مرتفع ينحدر منه ماء النيل فعائنه وباشره واختبره من جانبيه فوجد أمره لا يسير على موافقة مراده وتحقق الخطأ والغلبة عما وعد به وعاد خجلاً منخذلاً ، واعتذر للحاكم بأمر الله فقبل الحاكم عذره وولاه ديواناً فتولاه رهبة لا رغبة

وعندنا أن ابن الهيثم لم يشعر بالخيبة بسبب ما رآه من آثار المصريين القدماء ، فإن جمال تلك الآثار وجلالها وإتقان صنعتها لا دخل له في مشروع هندسى ولا نظن ان خبر تلك الآثار ووصفها كان يخفى على ابن الهيثم في وطنه ، ولكن السبب الحقيقي الذى قد بهمة ابن الهيثم عن الشروع في هذا العمل الجليل هو ما عاينه بنفسه من صعوبة مباشرته وكثرة نفاقه وعدد ما يبنى له من الأيدي العاملة والآلات المدنية الضرورية للحفر والبناء في مجرى النهر وما يقتضيه ذلك من تحطيم الصخر في الموضع المعروف بالجنادل

ولا بد ان ابن الهيثم قدر بالمعاينة ما يحتاجه هذا العمل فأججم عنه لما ظنه يحتاج إليه من النفقات الباهظة وأهل الفنون الماهرين ، وكانت مصر في ذلك العهد فقيرة في المال والرجال فسلك ابن الهيثم مسلك الرجل الحكيم وامتنع عن العمل في أوله وهذا أفضل مما لو أنه شرع فيه ثم توقف في وسطه ، فكان يجلب على البلاد غرماً وهي تنتظر منه غنائماً فلما عاد وتولى الديوان المصرى تحقق له الغلط في تلك الولاية لأن الحاكم كان كثير الاستحالة مريباً للدماء بغير سبب أو بأضعف سبب من خيال يتخيله ، فأجال ابن الهيثم فكره في أمر يتخلص به فلم يجد طريقاً إلى ذلك إلا الذى لجأ إليه وهو فى البصرة عند ما أراد الزواج إلى مصر ، فظاهر بالجنون وشاع خبره فمئن له الحاكم قياً وحجز على أمواله لمصلحته وجعل برسمه من يخدمه وقيدوه وتركوه فى موضع من منزله

وما زال ابن الهيثم على ذلك إلى أن تحقق وفاة الحاكم فأظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه وخرج من داره واستوطن قبة على باب الأزهر وأعيد إليه ماله واشتغل بالتأليف والنسخ . وكان يبيع فى كل سنة ثلاثة كتب من نسخته وهى « اقليدس »

و « المتوسطات » و « المحسطنى » بمائة وخمسين ديناراً مصرية . وكان ثمن تلك الكتب محددًا لا يقبل فيه مواكسة ولا معاودة قول ، فيجعلها مؤونة حياته طول سنته وكان ابن الهيثم من أرباب المذكرات الشخصية يدون فيها أخباره بقلمه سنة فسنة وشهرًا فشهرًا ، قال في مذكراته المدونة في آخر سنة ٤١٧ هـ وهو في الثالثة والستين من عمره :

« اننى لم أزل منذ عهد الصبي مرويًا في اعتقادات هذا الناس المختلفة ، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى فكنت متشككًا في جميعه موقفًا بأن الحق واحد وان الاختلاف فيه انما هو من جهة السلوك اليه ، فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعتم الى طلب معدن الحق ووجهت رغبتي وحرصى الى ادراك ما به تنكشف تمويهات الظنون وتنقش غيابات المتشكك المفتون وبعثت عزيمتى الى تحصيل الرأى المقرب الى الله جل ثناؤه المؤدى الى رضاه الهادى لطاعته وتقواه ، فكنت كما قال « جالينوس » فى السابعة من كتابه « فى حيلة البرء » يخاطب تلميذه « لست أعلم كيف تهبأ لى منذ صباى إن شئت قلت باتفاق عجيب ، وان شئت قلت بالهام من الله ، وان شئت قلت من جنون أو كيف شئت أن تنسب ذلك ، انى ازدريت العوام واستخففت بهم ولم ألثفت اليهم واشتهيت ايثار الحق وطلب العلم واستقر عندى أنه ليس ينال الناس من الدنيا شيئًا أجود ولا أشد قرابة الى الله من هذين الأمرين » اه
كلام جالينوس

قال ابن الهيثم « فحضت لذلك فى ضروب الآرام والاعتقادات وأنواع علوم الديانات فلم أحظ من شىء منها بطائل ولا عرفت منه للحق منهجًا ولا الى الرأى اليقبنى مسلکًا جددًا ، فرأيت اننى لا أصل الى الحق الآ من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية فلم أجد ذلك الا فيما قرره ارسطاطاليس من علوم المنطق والطبيعات والالهيات التى هى ذات الفلسفة وطبيعتها حين بدأ بتقرير الأمور الكلية والجزئية والعامية والخاصية ، ثم تلاح بتقرير الألفاظ المنطقية وتقسيمها الى

أجناسها الأوائل ثم اتبعه بذكر المعاني التي تتركب مع الألفاظ فيكون منها الكلام المفهوم المعلوم .

« ثم أفرد من ذلك الأخبار التي هي عنصر القياس ومادته قسمها الى أقسامها وذكر فصولها وخواصها التي تميزها بعضها من بعض ويلزم منه صدقها وكذبها ويعرض معه اتفاقها واختلافها وتضادها وتناقضها ، ثم ذكر بعد ذلك القياس ومقدماته وأشكاله وأنواعه ، ثم ذكر النتائج التي هي الواجب والممكن والمتنع ، ثم ذكر طبيعة البرهان والصناعات الأربع الجدلية والمرانية والخطابية والشعرية ، ثم أخذ بعد ذلك في شرح الأمور الطبيعية في كتابه « السماع الطبيعي » ثم كتاب « الكون والفساد » ثم كتاب « الآثار العلوية » ثم كتاب « النبات والحيوان » ثم كتاب « السماء والعالم » ثم كتاب « النفس »

« فلما تبينت ذلك أفرغت وسعى في طلب علوم الفلسفة وهي ثلاثة علوم : رياضية ، وطبيعية ، والهيبة ، فتعلقت من هذه الأمور الثلاثة بالأصول والمبادئ التي ملكت بها فروعها ، ثم اتى لما رأيت طبيعة الانسان قابلة للفساد ، متهيأة الى الفناء والنفاد ، فشرحت ولخصت واختصرت من هذه الاصول الثلاثة ما أحاط فكري بتصوره ووقف تمييزي على تدبره وصنفت من فروعها ما جرى مجرى الايضاح والافصاح عن غوامض هذه الأمور الثلاثة إلى وقت قولى هذا وهو ذوالحجة سنة ٤١٧ هـ »

بيان مؤلفات ابن الهيثم

- (١) شرح أصول اقليدس
- (٢) الأصول الهندسية والعددية
- (٣) شرح المجسطى وتلخيصه
- (٤) الكتاب الجامع في أصول الحساب
- (٥) علم المناظر
- (٦) تحليل المسائل الهندسية
- (٧) تحليل المسائل العددية بجهة الجبر والمقابلة مبرهنا
- (٨) تحليل المسائل الهندسية والعددية
- (٩) كتاب في المساحة
- (١٠) حساب المعاملات
- (١١) اجارات الحفور والابنية بجميع الاشكال الهندسية
- (١٢) قطوع المخروطات
- (١٣) الحساب الهندى
- (١٤) استخراج سمت القبلة في جميع المسكونة ، بجداول
- (١٥) مقدمة الامور الهندسية
- (١٦) كتاب في آلة الظل
- (١٧) رسالة في برهان الشكل الذى قدمه « ارخيدس » في قسمة الزاوية ثلاثة أقسام ولم يبرهن عليه
- (١٨) تلخيص مقدمة « فورفوريوس » وكتب ارسطوطاليس الاربعة المنطقية
- (١٩) مختصر للكتاب السابق
- (٢٠) رسالة في صناعة الشعر ممتزجة من اليونانى والعربى
- (٢١) تلخيص كتاب النفس لارسطوطاليس
- (٢٢) مقالة في مشاكلة العالم الجزئى وهو الانسان بالعالم الكلى (راجع ما كتبناه في هذا الموضوع عن اخوان الصفاء)

- (٢٣) مقالة في العالم من جهة مبدأه وطبيعته وكأله
 (٢٤) كتاب في الرد على يحيى النحوى ما نقضه على ارسطوطاليس وغيره من أقوالهم
 في السماء والعالم
 (٢٥) رسالة في بطلان ما يراه المتكلمون من الله لم يزل غير فاعل ثم فعل
 (٢٦) مقالة في طبيعتى الأمل واللذة (فلسفة ابيقور)
 (٢٧) رسالة في طبيعة العقل
 (٢٨) مقالة في أن فاعل هذا العالم إنما يعلم ذاته من جهة فعله

وهذا آخر ما وجد مكتوباً بخط هذا الفيلسوف :

« ليس خطابى في هذا الكتاب لجميع الناس ، بل خطابى لرجل منهم يوازى أوف رجال ، بل عشرات أوف رجال ، إذ كان الحق ليس هو بان يدركه الكثير من الناس لكن هو بأن يدركه الفهم الفاضل منهم ليعرفوا رتبتي في هذه العلوم ويتحققوا منزلتى من ايثار الحق ، ويعلموا تحققى بفعل ما فرضته هذه العلوم على من ملاسبة الأمور الدنياوية وكلية الخير ومجانبة الشر فيها فان ثمره هذه العلوم هو علم الحق والعمل بالعدل في جميع الأمور الدنياوية ، والعدل هو محض الخير الذى يفعله يفوز »
 وكان آخر ما كتبه ابن الهيثم سنة ٤٢٩ هـ أى قبل وفاته بعام واحد .



إيضاح عن ابن الهيثم

يعتبر مؤرخو الفلسفة من الأفرنج ابن الهيثم الذي عاش في أوائل القرن الحادى عشر للمسيح من أعظم علماء الرياضيات والطبيعات في القرون الوسطى . ويذكرون أن آثاره مباحثه ودرسه ظاهرة وباقية في النظريات الرياضية وفي تطبيقها العملى .

ولم يشتغل ابن الهيثم بالفلسفة كما ورد في اعترافه البليغ الذى نقلناه الال للبحث عن الحقيقة التى كان ينشدها منذ نعومة أظفاره لأنه اقتنع بأن الفلسفة أساس العلوم وأن مؤلفات ارسطوهى خير مرشد فى تلك السبيل . ويحاول محمد بن الحسن أن يقنعنا أنه لم يسلك تلك الطريق « الخدمة الانسانية وتنزيهاً لنفسه عن التشبه بالعوام الاغبياء » (ص ٩٧ ج ٢ عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة) وهو فى وقف حياته على المباحث الفلسفية لخير الانسانية يشبه اثنين من أمجاد أسلافه ابن رشد فى الاندلس وأوجست كومت فى فرنسا الحديثة (راجع كتاب بوير فى تاريخ الفلسفة العربية)

ومما يؤسف له أنه لم يبق لنا شىء من كتبه ورسائله التى أحصينا بعضها ولكنه فاق بحثه فى علم المرئيات ، الرياضى الاوربى فىتلو الذى عاش فى القرن الثالث عشر أى بعد ابن الهيثم بقرنين وقد كانت طريقة تفكير ابن الهيثم رياضية مثل ديكارت وسبينوزا . ومما ظهر فيه نوعه نظرياته فى علم النفس وفى ادراك الحس عامة ، والابصار خاصة . وتبحر فى درس الاحساس والمقابلة بين الاحساسات المختلفة وطرق التعرف على الاحساس وتميز بعضه عن بعض . على أن ابن الهيثم الذى قضى حياته أشبه شىء بدرويش متصوف يطرق باب الحكمة وينتظر أن يؤذن له فىدخل حظيرتها ويتعرف حقيقتها ، لم يكن من شأنه أن ينجح فى حياته المادية ولم يوفق للوصول الى غايته فى وطنه (البصرة) بعد أن أوجد بيحثه ودرسه مدرسة ذات مبادئ خاصة فى الرياضة والفلك .

على أن فلسفته الارسطوطاليسية لم تلق ما كان خليقاً بها من النجاح ولا يحفظ التاريخ لنا سوى اسم تلميذ واحد لابن الهيثم هو الامير أبو الوفا مباشر فاتك القائد المصرى فقد ألف فى أواسط القرن الحادى عشر كتابا فى الحكمة والتاريخ الفلسفى والأدب - وكله مجموع من آثار غيره وليس فيه أثر للابتكار .

وقد وجد ابن الهيثم من قال بكفره بعد موته فاحرقوا بعض كتبه فى بغداد فى أوائل القرن الثالث عشر .